



حكاية أديب

— سماح أحمد بادبيان - اليمن —

الجائعة المنتظرة في المنازل.
أكوام الأحجار في الطريق تعمق الحركة، تتناثر
المنازل تحت القصف وكأنها قصور من تراب بناها
طفل صغير، وهو يلعب على شاطئ البحر، فغمرتها
موجة قادمة مع المد وسوتها بالأرض.
يذكرها البحر برحلة العائلة في الصيف الماضي،
مذاق عصير الزيتون ما زال في فمها، قصور الرمل
التي بناها زوجها صمدت حتى المساء قبل أن تغمرها
المياه وتسويها بالأرض، أصوات غناء أطفال إخوتها في
السيارة تصدح في أذنها بألحانها الشجية..
صنعت من جسدها ترساً تحمي به الطفلة النائمة
في أحضانها من أي خطر مجهول...
انقضى ليل آخر طويل، وأشرقت الشمس، واختفت
بشروقتها أصوات الانفجارات وكأنها تتوارى بنورها
الباهت خجلاً من أنوار الصباح المشرقة!!

تناول رشفة صغيرة من عصير البرتقال وأخذ
نفساً عميقاً، شدّ يده على القلم، وبدأ يخط على
الصفحة البيضاء أمامه:
(مساء شتوي مخيف، أصوات المدافع تنبعث من
العدم، تخطف القلوب وتصهرها في بوتقة الرعب
والهلع.. احتضنت الأم طفلتها الصغيرة: لا تخافي يا
حبيبتي فأنت بين يدي.
سألتها الطفلة: لم، لم يعد أبي؟
ابتسمت قائلة: سيعود في الصباح.
تداخلت في عقلها الأفكار.. هل سيعود؟ خرج منذ
الظهيرة لشراء أرغفة الخبز، تأخر كثيراً وقد قارب
المساء!!

لكن المخابز جميعها مغلقة، مخبز واحد فقط
في طرف المدينة يبيع الخبز.. لا بد أنه غرق وسط
طواير البشر الباحثة عن لقمة تشبع بها الأفواه

بدأت الحياة تدبُّ في المدينة المدمرة.. أصوات أبواق سيارات الإسعاف تدوي في الأرجاء..

الشباب في الشوارع يرفعون مخلفات عنف همجي صبَّ جام غضبه في المساء، يبحثون عن حياة لعلها دفنت تحت الركام!!

منزل فقد طابقه الثاني، وآخر اختفى تحت أكوام الأحجار، صرخ أحدهم:

- وجدت شيئاً!!

أسرع الجميع.. أزالوا الحجارة.. نفضوا التراب.. سحبوا البطانية..

وقف الجميع بذهول يتأملون ما يرون.. هو وحده، أنقى الأرغفة الثلاثة من يده وجثا على ركبتيه... وأمام عينيه فوق البطانية جسدان رقيقان يسبحان في بركة دماء!!).

وضع القلم، أعاد القراءة وهو يرتشف ما تبقى من عصير البرتقال.. هزَّ رأسه راضياً بما أملاه خاطره على قلمه، فسطرته يده.

طرق باب المكتب، وسلّمها للمدير، دقائق مضت قبل أن يرفع المدير عينيه عن الأوراق ويعيدها إليه قائلاً: (لا تصلح للنشر، حاول مرة أخرى في موضوع آخر بعيداً عن الحروب والمآسي)

عاد إلى حيث كان جالساً، استلم قلمه، حكَّ رأسه بناصية القلم قليلاً، ثم شرع يكتب:

«وقف أمام المرأة يعدل ملابسه، ربطة عنقه الحمراء تخنقه تكاد تكتم أنفاسه، لكن لا مفر له من لبسها حتى تكتمل أناقته. تفقد ملفه: (شهادة الثانوية، شهادة الدراسة الجامعية، شهادة إتقان اللغة الإنجليزية، وشهادة الرخصة الدولية لقيادة الحاسوب، توصيات من إدارات المعاهد التي درس فيها، وشهادة حسن سيرة وسلوك من شيخ منطقتهم».

هتف بمرح: الأمور مبشرة بالخير.

التقت عيناه بعيني الوالدة الواقفة تتأمله عند باب الغرفة، فقال مازحاً:

- لا تقلقي يا أماه، أعدك بأن يكسو عظمك اللحم قريباً بعد أن أستلم الوظيفة، وستزورين الطبيب تشكين السمنة.

رفعت يديها إلى السماء تُمطره بالدعوات..

وصل إلى الشركة..

للمرة الرابعة يجلس على كرسي الانتظار أمام مكتب المدير، لم يشفع له تقديره الممتاز في نيل الوظيفة في المرات الثلاث السابقة!!

في المرة الأولى نظر إليه المدير شزراً وقال:

- ما قيمة شهادتك من دون إتقان أي لغة أخرى، مازال أمامك درب طويل!.

يومها لم يعد إلى منزله، بل إلى معهد اللغات الأجنبية في مدينته ليسجل اسمه طالباً فيه، ثم عاد إلى أمه راجياً إياها أن تقتصد في المصاريف لتوفير رسوم دراسته:

- خبز وفول يكفي الآن، وغداً سنأكل ما نشاء عندما أستلم الوظيفة.

ومضت شهور الدراسة..

وعاد إلى الشركة ثانية بشهادة امتياز أخرى حشا بها ملفه.. قلب المدير الملف، ووضعه جانباً ثم سأله:

- هل تجد استعمال الحاسوب؟

لم يستسلم، وعاد ثانية لينضم إلى صفوف الدارسين في معهد الحاسوب..

- لا ضير يا أمي بشهرين آخرين نحياهما على الخبز والفول.. وغداً أعوضك عن كل شيء.

في المرة الثالثة أتى حاملاً ملفه الكبير تتقدم أوراقه شهادة الرخصة الدولية في قيادة الحاسوب.. ولكن لم يُسمح له بمقابلة المدير، وقالت له السكرتيرة يومها:



- ليس لديك أي خبرة سابقة، لا يمكن أن نعتد على شخص لم يجرب ميدان العمل، عندما تكتسب الخبرة الكافية تعال لأوظفك.

جرَّ نفسه إلى منزله هذه المرة بفؤاد جريح، وقلب محطم، استقبلته أمه أمام الباب، لم يستطع أن يرفع رأسه إلى وجهها فدفته في أحضانها ودموع الخيبة تسيل على وجنتيه بفزارة كطفل صغير فقد لعبته المفضلة!!

ربتت على رأسه بحنان وقالت:
- لا بأس عليك يا ولدي لقد اعتدتُ على الخبز والفلول!!

وضع القلم يتأملها، ويصلح ما وقع فيه من أخطاء إملائية.. هزَّ رأسه - للمرة الثانية - راضياً بما سطر وروى.
عاد إلى المدير وسلَّمها إليه، دقائق تمرُّ وكأنها ساعات... خُيِّلَ إليه أن حدقتي عيني المدير تضيقان رغم سماكة النظارة التي يرتديها!

تهد بعرق ملقياً الأوراق من يده، ثم شبك كفيه أمامه متكئاً بمرقفيه على سطح المكتب قائلاً: (للأسف ما زالت لا تصلح للنشر، لديك أسلوب رائع لكنك تفتقد الفكرة، سأعطيك نصيحة قيِّمة إذا أردت أن تحترف الأدب اترك الكأبة جانباً، وانظر إلى ما حولك من الطبيعة والحياة).



عاد إلى مكانه مجدداً وأخذ أوراقاً جديدة من السكرتيرة، فقد استنفد كل أوراقه التي أخذها سابقاً..
استمرَّ يحكُّ رأسه بالقلم عدة دقائق.. (أين أجد فكرة لأكتب حولها؟)

- لقد كثر المخادعون واللصوص، لذا أضفنا شرطاً جديداً لمن يتقدم للوظيفة بأن يُحضر معه توصية من مكان دراسته، وشهادة حسن سيرة وسلوك من شيخ منطقته، فهل أحضرتهما معك؟
عاد أدراجَه يسعى من مكان لآخر، وقضى أسبوعاً في رحلة بين المعاهد حتى حصل على التوصيات وألحقها بشهادة حسن السيرة والسلوك من شيخ المنطقة.

وها هو ذا اليوم يؤمِّل نفسه: (ملفي الحافل بالشهادات لن يخذلني، تقديرات الامتياز تزين واجهة كل شهاداتي، الخطوة الأولى موظف هنا،



والخطوة التالية أن أترقى لأجلس مكان المدير!).
أدخلته السكرتيرة إلى مكتب المدير.. ملامحه الهادئة أشعرته بالاطمئنان والرضا، (لن يذهب تعبى وتعبك يا أمي سدى).

تسمرت عيناه في شفتي المدير.. بانتظار ما ينفرج عنهما من كلمات وحروف..
قلَّب المدير الملف بهدوء، وأخيراً رفع رأسه إليه، مطَّ شفتيه وأشعل سيجارة نفت دخانها السام ملوثاً أجواء الغرفة، ثم قال:

تعود إلى أعشاشها التي هجرتها في مواسم الشتاء لتبحث عن الدفء والأمان..

طائر صغير في آخر السرب عجز عن اللحاق بأصحابه، خانه جناحاه الصغيران، رفرف بقوة لساعات قبل أن تخور قواه فيتوقف ليستريح قليلاً على إحدى الأشجار.

ولكن لشدة تعب نام قليلاً، ولمّا استيقظ لم يجد أثراً لسربه الطائر، أرهف السمع علّه يسمع شيئاً من زقزقتها من دون فائدة فقد ابتعدوا كثيراً، ولا يعرف إلى أين اتجهوا!!

سمعت بومة عمياء تسكن ثقباً في الشجرة التي يقف عليها صوت زقزقته الحزينة فخرجت من مكانها متسائلة:

- من هذا الذي يبكي على شجرتي؟

أجابها الطائر الصغير:

- إنه أنا.. طائر صغير غادر موطنه، ولم يستطع العودة إليه، جناحي الصغيران لم يمكناني من الرفرفة مع رفاق سربي فتركوني ورحلوا.

رقت البومة لحاله، وتألمت كثيراً، فقالت له:

- يمكنك البقاء عندي، فأنا كما ترى بومة عمياء، فإن ساعدتني على إحضار طعامي سأؤويك في عشي، والقرار بين يديك فماذا ترى؟

وافق الطائر الصغير البومة على اقتراحها.. وعاش معها أياماً وشهوراً كثيرة بدفء وأمان، ولكنه كان يشعر بفراغ في قلبه يؤرقه، ويصعب حياته بالحزن والكآبة، لا يعرف كنهه ولا يجد للخلاص منه سبيلاً. أخبر البومة يوماً عما يشعر به، فقالت له: (إنه

الحنين)!

- شعورٌ فطريّ - مغروس في القلوب - بالشوق للأحباب رفيقة وأرضاً، زماناً ومكاناً، تغذيه ذكريات محفورة في سويداء القلوب.

جال بناظره فيما حوله، الساعة الرابعة عصراً، السكرتيرة على مكتبها منشغلة بترتيب بعض الأوراق والملفات، بجانيه فتى منهمك في الكتابة منذ ساعة، أكمل قصتيه السابقتين، وما زال هو يكتب واحدة!! اختلس نظرة لكلماته علّها تلهمه شيئاً، أو يقتبس منها فكرة:

(جلسا تحت ظل شجرة عنب كبيرة يتبادلان عبارات لطيفة... كان الجو ممطراً وجميلاً...!)

تساءل في نفسه: أين توجد مثل هذه الشجرة الأسطورية؟؟

الجو الممطر يذكره بالدموع، وقد ذرف كثيراً منها في جنازة أمه..

لم يجد في ذلك ما يكتبه.. عاد يختلس النظر إلى العبارات الأخرى:

(سيطر حبها على قلبه حتى تملكه... قبله بريئة... أجمل أيام الدراسة الجامعية...)

لم يفهم الرابط بين عباراته!..

أيام الدراسة الجامعية تذكره بالعمل المرهق الذي اضطر إليه لتوفير مصاريف الدراسة.. والقبلة البريئة تعصف برياح الأحزان في قلبه، وتعيد إليه ملامح طفولية، اختفت من عالمه قبل عدة سنوات، أما الحب فكلمة دفنتها يوم دفن عائلته وغادر وطنه.

لم يعجبه نصه الرومانسي الخيالي.. فعاد إلى أوراقه، يذكره بياضها بالسيدة (نهاد) مديرة ملجأ الأيتام، كانت طويلة القامة، بلامح هادئة، ووجه مشرق من شدة البياض، لكنه لا يجد في ذلك أيضاً ما يكتبه!

وقف أمام النافذة يتأمل السماء باحثاً عما يمكن أن يكتب حوله، استغرق وقتاً طويلاً قبل أن يجد الفكرة فأسرع إلى أوراقه يكتب:

((السماء صافية، أسراب من الطيور المهاجرة



- ولكنني أحبك وأحب هذه الغابة!

- أحببتني لأنني ساعدتك عندما احتجت للمساعدة، وأحببت هذه الغابة لأنها صارت مأواك عندما فقدت المأوى، ولو طردتك من هنا لكرهتني وكرهت الغابة، ولما أردت العودة هنا مرة أخرى.

أما أرضك التي نشأت فيها، ورفاقتك الذين تربيت بينهم.. فسيظل حنينك إليهم مهما حدث ورغم كل الظروف، لأن حبك لهم نابع من فطرتك، وحبك لنا نابع من حاجتك وشتان بين الحبين!

- وماذا أفعل لأملأ الفراغ في قلبي؟



من دون أن ينتبه!..

شدَّ همته وطار في السماء، شعر بأن قلبه ممتلئ بالسعادة والسرور، وأدرك أخيراً ما كانت تعنيه البومة.

اقترب كثيراً من السرب الطائر وحلّق بين رفاقه من جديد، لكنه في غمرة سعادته نسي ما قالت له البومة فحانت منه التفاتة للوراء، فرأى البومة العمياء تقف على الفصن تنعق منادية عليه، وتتحسس بأحد جناحيها في الهواء باحثة عنه.

أبطأ قليلاً في طيرانه وظل يراقبها، تردد في الاختيار بين الماضي والعودة.. اقتربت من طرف الفصن.. تكاد تقع من عليه.. حزم أمره أخيراً.. التفت سريعاً إلى الوراء وعاد، اختار أن يبقى جسده هنا وقلبه هناك!))

طوى الورقة.. ثم سلّمها للسكرتيرة راجياً منها أن تسلّمها نيابة عنه؛ فقد خجل من الدخول إليه وذلك الفتى عنده يسلمه قصته..

دقائق مضت قبل أن تعود السكرتيرة من مكتب المدير بقصته ونموذج قصة أخرى قائلة له: - إن المدير يطلب منك أن تقرأ هذا النص، وتكتب مثله إن أردت أن تصبح أديباً.



تناول نموذج القصة ليقرأها.. لكنها لم تكن إلا النص الرومانسي الخيالي الذي كتبه الفتى الذي كان بجواره... ولم يعجبه!

أخذ ورقة بيضاء، وكتب عليها سطرًا واحدًا، ثم طواها وأعطاه للسكرتيرة لتسلمها للمدير.. وغادر المكان!

فضّ المدير الورقة وقرأ:

(إذا كان هذا هو ما يعنيه الأدب.. فأنا أعلن

- بكل فخر - أنني قليل الأدب!)

- عليك أن تراقب السماء في الفجر وعند

المساء، فإذا شعرت فجأة بامتلاء الفراغ في قلبك فطر، ولا تنظر أبداً للوراء.

استمر الطائر بمراقبة السماء دون أن

يفهم مغزى ذلك وجدواه، وفي فجر أحد الأيام سمع

زقزقة جميلة، ورأى سرباً طائراً في السماء، شعر

بقلبه يتقافز في صدره، وبرغبة عارمة بالتحليق،

رفرف بجناحيه، (فوجئ بالطول الذي صار عليه